Al-Itqan Journal of Humanities (Vol. 1 No. 2) May (2026)

Al-Itqan Journal of Humanities available online at https://iraqiqsa.org/Journal/index.php/AIJHS/index
ISSN: 3105-1073 (OnLine)
المجلة معتمدة بالترقيات العلمية حسب كتاب وزارة التعليم العراقية (1410-46404) في 2026/4/27

الحِجاج في كتاب تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة

د. حيدر جليل جبر

Arguments in the book "Tanbih al-Ummah wa Tanzih al-Millah"

hydrjlyljbralbtat@gmail.com

الملخص :

تعد الدراسات البلاغية الجديدة القائمة على الحجاج محطة جيدة لفحص الكثير من المتون الخطابية ذات التوجهات المتنوعة بكلِّ ميادين المعرفة ولاسيما عند من يعرف بتنوع خطابه ويأخذ طابع التعددية الفكرية ، وكتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة) خير دليل وشاهد على هذه الحقيقة ؛ كون الشيخ النائيني رحمه الله مثل طفرة في ميدان السياسة بهذا المؤلف المهم ، الذي عالج فيه واحدة من أخطر الآفات التي عصفت بالمجتمع الإسلامي ألا وهي (التسلط والاستبداد) ؛ لذا انطلق من وقائع حقيقية رسم بها سياقه الحجاجي محاولا وضع الحلول الناجعة والخطوات الممهدة للقضاء على كل هيمن تسلطية عند المسلمين في دولتهم ، وأعانه بذلك المرجعية الفكرية التي يحملها بوصفه مرجعا له وظيفة استنباط الأحكام الشرعية ، والنظر في تكاليف المؤمنين في توجيههم نحو ملاكات الأحكام كون لكل واقعة حكم . وبما أنَّ آراء الشيخ جوبهت بكثير من الردود والاعتراضات هنا دفعه إلى النظر في تلك القضايا والإجابة عنها بشكل واضح عن طريق تحديد ملامح المنهج الذي يريده لإصلاح ما أفسده الظلمة وجهل الأمة ، وهذه العوامل اجتمعت لتجعل من الكتاب مليء بالحجج التي يوضفها كل متكلم لأجل الإقناع . الكلمات المفتاحية : (المشروطة ، المستبدة ، المنطلقات الحجاجية ، التقنيات الحجاجية ، الباث)

Summary :

The new rhetorical studies based on arguments are a good station for examining many rhetorical texts with diverse orientations in all fields of knowledge، especially among those who are known for the diversity of their discourse and take on the character of intellectual pluralism . The book (Alert the Ummah and Elevate the Faith) is the best evidence and witness to this truth. The fact that Sheikh Al-Naini، may God have mercy on him، represented a breakthrough in the field of politics with this important book، in which he dealt with one of the most dangerous scourges that struck Islamic society، namely (tyranny and tyranny); Therefore، he started from real facts with which he drew his argumentative context، trying to establish effective solutions and steps paving the way for the elimination of all authoritarian hegemony among Muslims in their state، and he was aided in this by the intellectual reference that he carries as a reference that has the function of deducing legal rulings. Therefore، he started from real facts with which he drew his argumentative context، trying to establish effective solutions and steps paving the way for the elimination of all authoritarian hegemony among Muslims in their state، and he was aided in this by the intellectual reference that he carries as a reference that has the function of deducing legal rulings، and considering the costs of the believers in directing them towards the capabilities of rulings، because each Judgment incident. Since the Sheikh's opinions were met with many responses and objections here، he was prompted to consider these issues and answer them clearly by defining the features of the approach he wanted to reform what was corrupted by the darkness and ignorance of the nation. These factors combined to make the book full of arguments that each speaker adds for the sake of persuasion.

المقدِمة :

النائيني : هو الميرزا محمد حسين بن الشيخ عبد الرحيم الغروي النائيني مرجع ديني كبير وفقيه فارع من أسرة شريفة شامخة الأصل ، عريقة المجد معروفة بالعلم والمعرفة ، ومن مؤسسي حركة المشروطة في إيران توفي سنة ١٩٣٦ م ، له مؤلفات كثيرة في الفقه والأصول حتى أصبح له منهج يعرف (بمدرسة النائيني) ، لمع اسمه في ميدان السياسة مع استاذه الشيرازي في ثورة التنباك ، ومن ثمَّ ألف رسالته (تنبيه الأمة)التي أظهرت رأيه السياسي ودعوته إلى اصلاح الواقع المعاش للمسلمين[١] .

تمثلت الحركة السياسية لعلماء التشيع بالارتباط العقائدي النابع من أخذ زمام المبادرة نيابة عن المعصوم ،وهنا حصل الافتراق فيما بينهم: فمنهم من ترك هذا الجانب واعتبره اغتصابا لسلطة المعصوم الإلهية ، وأمَّا الطرف الآخر فرأى إنَّ العالِم العادل لابدَّ له على أقل الأمور أن يبين المنهج الذي يُتَّبع لقيادة الأمة ؛ وهذا ما دفع الشيخ النائيني أن يكتب كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة)موضحاً فيه الكيفية التي تدار فيها السلطة في زمن الغيبة الكبرى وفق تشكيل مجلس منتخب يأخذ على عاتقه مراقبة عمل الحاكم المتصرف في شؤون العباد . وبما أنَّ الخوض بمثل هكذا موضوعات يعتبر من النوادر في زمن النائيني فهذا يدفعه إلى بناء كتابه بخطاطة حجاجية تحمل في ملفوظاتها القولية كلَّ ما يؤثر في ذهنية المتلقي ، وتحمله على التعلق بها كونه قارن في خطابه المُحاجي ما بين الاستبداد وبين الحكم المبتني على الدستور والمؤسسات التي تحرص على تحجيم الظلم وانتشاره ، كلُّ هذا حمل في طياته حجج بلاغية ترقى في بنائها إلى القواعد التي أرستها حركة البلاغة الجديدة عند الفيلسوف الألماني (بيرلمان) ولعل اختيار مصنف لعالمٍ فقيه لدراسته وفق منهجية البلاغة الجديدة يرجع إلى الأسلوب الذي كتب فيه العالِم كتابه ، فإنَّ ظرف المؤلف ومتطلبات الأمة بزمنه وهيمنة المتسلطين دفعته إلى أن يأتي بعبارة أقل وطأة ممَّا يستعمله في بحثه التخصصي في الفقه والأصول ، دليلاً كافياً يرشد بكل وضوح إلى إمكانية كبيرة في صناعة الخطاب وفق نظرية لكلِّ مقام مقال .

أولاً : منطلقات الحجاج :

منطلقات الحجاج :في صناعة الخطاب الحجاجي يُشترط ضرورة وجود حالة من التلازم التكيفي ما بين المتكلم والمتلقي ,وهذا يحصل من خلال استعمال مقدمات مقبولة ومسلمة عند المخاطَب ، فليس الهدف من هذه المقدمات منطقي يصل للنتيجة الصادقة استنادا لصدق مقدماتها ، بل يعول مبدأ التكيف البيرلماني على التعانق ما بين المقدمات والنتائج الذي يتحصل من عدوى القبول التي تنتقل إلى النتيجة من مقدمتها ، فلا بد من مقدمات مقبولة لدى المستمع ينطلق منها المتكلم وإلَّا يقع في فخ المصادرة على المطلوب .[٢] فتتضح مدى أهمية هذه المقدمات لجعل الخطاب الحجاجي ناجعا ومؤثرا في السامع ويبين وعي المتكلم بالمستوى الفكري والمعرفي للمتلقي ، فيكون الكلام محفزاً لعقله مثيرا لنوازعه النفسية أو العاطفية ، لذا يتم التركيز على الوقائع والحقائق والفرضيات والقيم والمواضع ، بكونها منطلقاً للخطاب الحجاجي وهي نقطة الانطلاق نحو الإقناع .[٣] وهنا يبذل الباث قصارى جهده لتحسين ملفوظاته في هذه المقدمات ليدُل على مقدرتهِ الكلامية ؛ بكونها عتبة مهمة ترتبط بالامتدادات المعرفية لهُ ومن ثمَّ تبين نجاح الخطاب في تحقيق الغاية المرجوة منه .

١–الوقائع : وتمثل كل مسلَّمٍ لا يقبل الريب والردَّ يشترك فيه كل الناس أو مجموعة أفراد ، وإنَّ المتلقي يتقبلها تفاعلا مع المقبولية الجماعية كون هذه القضايا ترتبط بالواقع حتماً ،وهذا ما حصل في خطاب الشيخ النائيني حين افتتح مقدمته قائلاً((الحمد للهِ رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد وآلهِ الطاهرين))[٤] فذكر هذه الديباجة تمثل وقائع تسالم عليها بين جميع المسلمين ، فهي القسم الثاني في بدء الخطاب بعد البسملة يؤتى بها تأسياً في القرآن الكريم ، وابتنيت ثقافة الخطاب العربي عليها ليثير انتباه جمهوره المسلم ويستعد لما سيؤول اليه الخطاب من بعد التحميد ، فالحمد متعلق بالمحمود وهذا ما جعل المؤلف يبدأ به بوصفهِ أمراً مهما يلبي رغبة الحامد لتحصيل البركة في جهده المبذول؛ ولأنَّ النفوس تكون أكثر تشوقا وتعلقا بالنص إذا كان يبدأ بالثناء على ربِّ الممكنات .فهذه الوقائع تمثل التوحيد الخالص لله والتصديق بالنبوة والإمامة فهي تحمل في طياتها البعد الآيديولوجي الذي يحمله صانع الخطاب ، وهنا يتضح إنَّ مثل الشيخ النائيني لا يمكنه تجاوز هذه العتبة المهمة في مؤلفهِ . كونها تمثل ما هو متفق عليه بين جملة من المعطيات الحقيقية المشتركة التي تتفق عليها مجموعة كبيرة من الكائنات وقد يسلم به جميع البشر على اختلاف ألوانهم ، وهذا ما ينتج اتفاق المستمع الكوني الذي يؤثر من خلال قناعاته في كلام المُخاطِب[٥]. فالحجاج لا يستند إلى الوقائع بوصفها مصاديق متعارفة فحسب بل يرتكز على لازمها الأكثر نفعا وهو الإقناع المرجو حصوله .

٢–الحقائق : وهي مسلمات يتبناها الجمهور المخاطب لكن الفرق بينها وبين الوقائع هو استنادها إلى حقائق علمية ومعرفية تربط بين تلك الوقائع المسلمة . ومن شواهد ذلك ((فإنَّ المطلعين على تأريخ العالم يعلمون بأنَّ الأمم المسيحية والأوربية لم يكن لها قبل الحروب الصليبية أيّ نصيب من العلم والمدنية والنظم السياسية وهذا يرجع إلى أحد أمرين :فإمَّا أنَّ الشرائع التي آمن بها الأوربيون لم تكن تنطوي على ذلك ، أو أنَّهم حرفوا تلك الشرائع والكتب . وبعد وقوع تلك الواقعة العظيمة –الحروب الصليبية–عزوا انكسارهم إلى تخلفهم وجاهليتهم ، فجعلوا معالجة هذا المرض –وهو أساس كل الأمراض –وانطلقوا نحو هدفهم هذا بشوق وحنين))[٦] فالمقام هنا هو بيان تجربة أمة الغرب التي سبقت المسلمين في تجربتها بالتخلص من العبودية والاضطهاد ؛لذا عمل الشيخ على إسناد تلك الحقيقة التأريخية التي يقبلها الجميع ولا يرفضها ،

بل تكون محل قبول ناجع لديه ؛لأنَّه أسند الوقائع إلى مصداقٍ خارجي يقرُّ به كل من له معرفة بتاريخ القارة الأوربية وما حصل لها قبل عصر النهضة ، وعلى إثرها ممكن وضع مقدمات ونتيجة وفق هذه الحقائق :

أ–لم يكن يعرف المسيحيون التقدّم . ب–وجود الجهل والتخلف وتحريف الأديان هو المسبب بذلك .

ن–إذاً التغلب على تلك الأمراض يقدم الأمم أيًّ كانت ومنها المسلمين .

فالاستناد لحجة ضاغطة جعل من الخطاب مؤثرا في ذهنية المتلقي وبالأخص أنَّه أورده في أول كتابه ليبين أن مثل هذه الأسباب الواقعية المسلَّم بها هي سبب تراجع الأمة الإسلامية ولا يكون أيّ تقدم وعدالة إلّا بما يزيح تلك المسببات للهيمنة التسلطية عند حكام الجور والظلم في بلاد المسلمين عامة وبلد الشيخ خاصة (إيران) ، فهذه المقولات تعطي قوة حجاجية بما تملكه من أنساق معقدة وضعت ضمن إطار من الحقائق المقبولة عند المعنيين بالخطاب ليكونوا في حالة إذعان معرفي فيتحصل نجاح الإقناع[٧] المرجو من الشيخ النائيني .

٣–الفرضيات:هي قضايا مسلَّمة كالوقائع والحقائق يقول بها مجموعة من الناس وتحظى بموافقتهم ، ولكنَّهم لا يذعنون لها ولا يأخذونها على نحو المقطوع بها فيكون موقفها ضعيفا إلّا إذا جاءت في سياق الخطاب الحجاجي عناصر أُخرى يوظفها المتكلِّم لتقوية موقف القضايا وجعلها محل إذعان الجمهور ,وهي قد تكون شواهد دينية أو علمية راجعة إلى سلطة في الإقناع لا يمكن الرد عليها[٨] ، وقد تجلت ضمن مؤلف الشيخ بشكل يمنح الحجاج حالة تقدم ودليل يحرك ذهن السامع نحو التفكر بشكل منطقي فيما يتوجه إليه من كلام ومثالها : ((ولهذا كان استنقاذ حرية الأمم المغصوبة وتخليص رقابها من الرقّية المنحوسة ، والإنعام عليها بالحرية من أهم مقاصد الأنبياء ، إذ لم يكن غرض موسى الكليم وهارون (عليهما السلام) بنص الكلام المجيد ((فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ))[٩] إلّا تخليص رقاب بني إسرائيل من ذل عبودية الفراعنة ، وما كان هدفهما إلّا أخذ بني إسرائيل معهما أحراراً إلى الأرض المقدسة ، وكانا قد ضمنا إلى فرعون دوام ملكه وبقاء عزته على فرض إجابتهِ لطلبهما –كما في الخطبة القاصعة لأمير المؤمنين– لكن الذي أغرق الفراعنة هو عدم استجابتهم لهذا الطلب وتعقبهم بني إسرائيل لإرجاعهم إلى مصر))[١٠] ففي أول الأمر بيّن حجة مجمع عليها المسلمين جميعاً – كسلطة قولية تكسب انتباه الجمهور– نحو القضية الكبرى التي يتحدث بها المرسِل للخطاب وهي تحرير الناس من الطغيان ، إذ ركَّز في خطاطته اللفظية أهمية بعثة الأنبياء التي تستند إلى ركن مهم وهو جعل الناس أحراراً في تفكيرهم وأفعالهم ،هذه الحرية المرتكزة على طاعة الله فقط لا غير وليس للسلطان أية شيء منها سوى تدبير شؤون الناس بما يتلاءم وقانون السماء وهذه الحقيقة أسندها الشيخ بحجة قرآنية غير قابلة للرفض ليثبت توجهه ضمن سياقه في إقناع المتلقي بضرورة الخروج من تيه الاستعباد الذي قد مقتته السماء وأرسلت الأنبياء أداة للتخلص منه وقيادة الخلق نحو الحرية والمساواة وإبعاد الظلم والجهل عن الأمة ، ومن ثمَّ عضد مقولته بشاهد آخر وهو خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) التي أشار فيها إلى أنَّ سبب هلاك الفراعنة هو عدم تطبيقهم أمر الله والانصياع لقول موسى (عليه السلام) ، وهذا ما يعطي زخما حجاجياً آخر في بيان عواقب تصدر الظالمين والفراعنة بأنَّهم سيُهلكون عاجلاً أو آجلاً ، لكن مهلكتهم تكون بعد إحداث الضرر بالناس ، فكان لابدَّ على الأمة المسلمة بحسب قول النائيني أن تنتبه لهذه المعادلة وتنهض من جديد وتبعث الأمل لتنقذ أجيالها الصاعدة من سطوة الاستبداد وهيمنة الطواغيت .

٤–القيم : هي وإن لم يكن لها بعد علمي في الاستدلالات الكلامية لكنَّها تمثل الغذاء الرئيس والعنصر المهم الذي يكون له دور المغذي في العملية الحجاجية لاعتبارات فلسفية أو برهانية ،وقد تكون القيم محسوسة مثل الوطن أو مجردة مثل العدل و الحق ، وهي ذات مقبولية لدى المتلقي ؛لأنَّ البشر جميعهم لا يحيدون عن حقيقة هذه القيم[١١] ، ومعلومٌ أنَّ لكل أمة مفاهيم تعرف (بالعادات والتقاليد)عرفوا بها وبقيت مترسخة في مجتمعاتهم لتمثل قيماً عليا لا يمكن تجاوزوها كالقيم العربية الأصيلة (الكرم والإخاء والجوار) التي أرساها الدين الإسلامي عند مجيئه .[١٢] وقد أوردها الشيخ النائيني في كتابه قائلاً : ((اتضح لك ممَّا سبق أنَّ أساس السلطة ، سواء كانت شرعية أم غير شرعية –أي مغتصبة– فيما يختص بالعدالة والولاية يستند إلى مَبْدَأي الحرية والمساواة ، وأمَّا فيما يرتبط بالشورى وتحديد الصلاحيات فإنَّهُ يتوقف على تدوين قانون أساسي وتشكيل مجلس شورى وطني))[١٣] فهنا وظَّف قيم الحرية والمساواة والشورى في الحكم بوصفها هدفا رئيساً لانتشال الناس من سطوة الاستبداد والعبودية للظالم ، وهذه القيم تمثل مقبولية إنسانية كبيرة فضلاً عن ارتباطها الديني فهي تعطي حقَّ الإنسان بالحياة كريما بعيدا عن الإذلال والإرهاق الذي يشكِّله الضد من تلك القيم ، فاستناد المُحاج لها يعطي قوة إقناعية ضاغطة للخطاب ؛ لأنَّها ترتبط بعامل التغيير الفكري والثوري كونها متصلة بمجال إصلاح الإنسان وتوجيه الانتقاد لكل الأخلاقيات السيئة[١٤] ، فإعلاء هذه المفاهيم يمثل ثورة على كل ما هو وضيع ودنيء ولاسيما ما يتصل بإذلال الآخرين واحتقار كرامة المؤمنين ، وعدم إنفاذ شريعة رب العالمين ، في إنصاف المضطهدين والمظلومين ، فتجسيد هذه القيم جاء موافقاً لقانون (المعنى الشخصي) بأن يسخِّر المتكلم كل ما لديه من قدرة خطابية لأجل التأثير في

المُستقبِل وذلك من خلال تضمين القيم الإنسانية الجميلة الباعثة للحياة في لغة التخاطب مع الأفراد[١٥] . ليربط الشيخ النائيني سبب تأليفه الكتاب ودعوته إلى الحركة الدستورية (المشروطية) هو لأجل إحياء تلك القيم الباعثة على تقدم الأمم ونبذ التخلف في نظام (المستبدة) للوصول إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وفوز الشعب بالحريات التي تعطيه حقوقه الإنسانية والدينية بغض النظر عن الخلافات الاعتقادية والفكرية .

٥-المواضع : هي أعم من القيم وهرمياتها ، كونها مستودع للحجج وتطبق على علوم مختلفة لا تكون وقفاً على علم بعينه كما أنَّها تحدد ما تمتاز به كل جماعة من الجانب الفكري، والأدبي من خلال بيان الصفات الثابتة فيها مقابل الزائلة لذا سميت بالمعاني[١٦] ، فقيمة المواضع في وظيفتها التي تعمل بها في الكلام فهي كالأوتاد تمثل سلطة دامغة للخطاب تجعل من المتلقي مذعنًا لما يسمعه من حجج ، لذا عدّها بيرلمان أقسامًا فيها مجموعة حجج تمثل ملجأ للمتكلم حين يريد صيغ استدلالية لمطلبه في سياق الكلام ، تكون أسهل لإقناع المتلقي[١٧] . وقد قسمها بيرلمان على نوعين هما :

أ-مواضع الكم:وهي التي تقوم على تفضيل شيء على شيء آخر بسبب عامل الكم مثل الكل خير من الجزء، والحقيقة مفضلة كونها تحظى بمقبولية جميع الناس[١٨]، فإنَّ معيار هذه المواضع استنادها لعامل الكثرة والقلة ، فهي تؤثر وضعاً معين على آخر يقابله كونهما يتفاوتان كماً[١٩]، ومن أمثلتها ما ذكره الشيخ في صفات النائب في المجلس الرقابي الذي اقترحه هي: ((أن يكون غيوراً على دينهِ ودولتهِ ووطنهِ الإسلامي وعلى عامة المسلمين ، بحيث يعتز بجميع حدود وثغور البلد أكثر من اعتزازهِ بأملاكهِ الشخصية ألف مرة ، وأن يرى دماء وأعراض وأموال الشعب كما يرى روحهُ وعرضهُ وناموسهُ الشخصي ، وأن يكون للناموس الأعظم -وهو الدين- في قلبهِ المكانة الأسمى ممَّا عداه ، ويليه بالدرجة الثانية حراسة استقلال الدولة الإسلامية التي هي وظيفة الجميع))[٢٠] فقد بنى التراتبية الخطابية وفق الكثرة والقلة استناداً إلى تقديم الأهم على المهم وإن موضع (أكثر)الذي جاء على وزن (أفعل) يعطي إلى جانب التوجه نحو الهدف أيضا الأفضلية لما يراد تنفيذه فإنَّ اسم التفضيل يثبت هذه الحقيقة التي يراد تطبيقها ، فالشيخ يرى أنَّ حامل هذه الصفات بما فيها من مواضع حججية ستكون أكثرُ إثباتاً في ذهنية المتلقي ، وكذلك حين جاء إلى الدين جعله (الأسمى) في مكانتهِ دون الوظائف الأُخرى ؛لأنَّ الدين يمثل المرجعية الكبيرة التي لا يمكن الاستغناء عنها فهي الضابطة التي تحكم سلوكه كونها ترجعه إلى الحساب والعقاب استنادا إلى قانون الخشية من العذاب الإلهي الذي يصيب المنحرف عن طريق الحق ، ومن يعمل بالحق فهو يرجو رضوان ربّه تعالى ، فهذا الموضع بما يمتلكه من معنى يثبت البعد الإسلامي للمُحاج في ترسيخه للخطاب نحو تحقيق خدمة الأمة بوجود أفراد يتمثلون بهذه التوجهات ويعملون على تحقيق الحرية والمساواة وإنهاء الاستبداد .

مواضع الكيف : وهي بخلاف مواضع الكم كونها تمثل نسيجاً أحادياً فهي موضع واحد يقابل مجموعة وتستمد قوتها من هذه الوحدة مثل حقيقة الله أمام أراء البشر المختلفة ومثل الحق الذي يمثل جانب واحد مهما كان أعدائه كُثُر[٢١]. فهذه المواضع تؤكد المنزلة الرفيعة والعالية للأمر الفريد فهي ترجع إلى النخبة المثقفة على كل الجماهير، لذا فهي تتمازج مع الفكر الرومانسي[٢٢] . ومن هذه المواضع ((إيجاد دستور وافٍ بالتحديد المذكور، بحيث تتميز الوظائف التي يُلزم السلطان بإقامتها عن المجالات التي لا يحق له التدخل فيها والتصرف بها. ويتضمن أيضاً كيفية إقامة تلك الوظائف وإيضاح درجة استيلاء السلطان وحرية الأمة وما لفئاتها وطبقاتها من حقوق ، على وجه يكون موافقاً لمقررات المذهب ومقتضيات الشرع ؛ بحيث يكون الخروج عن عهدة هذه الوظيفة ومراعاة هذهِ الأمانة إفراطاً أو تفريطاً خيانة -كسائر أنواع الخيانة بالأمانات- موجبة للانعزال عن السلطة بشكل رسمي وأبدي))[٢٣] ,وضع الشيخ التوجه الأساس للدستور الذي يقترحه لتسيير أمور العباد ، بتحديد الوظيفة الرئيسة له وهي تحديد دور الحاكم وبيان الأعباء التي يقوم بها والأمور التي عليه التنحي عنها ولا يتدخل فيها فصلا للوظيفة ، فالحاكم للدولة لا علاقة لهُ بالتصدي لأمور الشريعة المرتبط بالحلال والحرام فتلك وظيفة المجتهد الجامع للشرائط ، أمَّا وظيفة الحاكم فترجع إلى ما أنتجته تجارب الأمم في العصر الحديث من إيكال الأمور بيد متصدٍ يملك مجموعة مؤهلات ترقيه إلى إدارة سدة الحكم ، إلّا أنَّ موضع الكيف الأساس هنا هو أن يكون الحاكم مراعيا لتكاليف الشرع وفق الدين الإسلامي وهذا راجع إلى كون الشيخ قد ألف كتابه لحل المسألة الإيرانية ذات الأغلبية المسلمة وهنا يكون توجهه الخطابي مبيناً غير قابل للاعتراض فهو لا يريد التمييز بين المسلمين بقدر ما يريد الإفادة من قانون الديمقراطية التي تهدف إلى تحكم الأغلبية بوصفها تمثل الأحقية المشروعة ضمن غالبية الأصوات ، وهنا يتولد عمق البعد الحجاجي ذي النزعة الإقناعية الهادف إلى توضيح طرق الحكم السليمة عند مجتمع يرزح تحت وطأة ظلم الجبابرة وقوة السلاح الذي يوجه إلى صدور المتطلعين نحو الحرية والعدالة وتطبيق الشريعة ، وهذا ما يجعل الحجاج أكثر تأثيراً في المرسَل إليه ويحمله على التفكر فيما

يُطرَح أمامهُ وما سيحدث إن حصل ما يقترحه الباث ، لأنَّ هذه المواضع مرتبطة بالتصديق الذي يقع ضمن نظام الثبوت من أجل بلوغ معاني تجعل من الخطاب محكما[٢٤]. فاتضح قوة الموضع الكيفي في بيان القوة الإقناعية للسياق الخطابي عند الشيخ النائيني والتي حاول من خلالها إيصال النظرية الدستورية بأوضح الملفوظات القولية الملتزمة بالحجاج.

ثانياً : تقنيات الحجاج :

إنّ توظيف المتكلم للحجج في خطابهِ لحمل المتلقي على الاقتناع والإذعان لغايته المرجوة، يستدعي الفهم الصحيح للحجج وكيفية استعمالها وتصنيفها داخل بنية الخطاب– على وفق ما يرتئيه السياق الذي يحملها – فيختار صنفًا منها ويترك الآخر بحسب الحاجة إليها وضرورة توظيفها مكان غيرها[٢٥]. وبما أنَّ غاية البحث الوصول إلى معرفة التقنيات الحجاجية التي تم توظيفها في كتاب الشيخ النائيني بوصفهِ فضاءً يحضنها وإطاراً يجمعها ، لذا وجب استجماع التقنيات والكيفية التي بها صُرِّفت للوصول إلى مرحلة الاستبصار في الاستراتيجيات التي أضمرها الشيخ في كلامهِ من أجل الوقوف على طرق إثبات الحق الذي يريد إثباته . ولبيان هذا الأمر بالشواهد الواضحة سيتم عرض كل تقنية من هذه التقنيات التي تقوم على الربط ما بين الحجج من أجل الوصول إلى معرفة أنماطها وما ينبثق عنها من نماذج تواصلية يظهرها خطاب الشيخ الحجاجي. وهي من حجج الاتصال التي تراعي طرفي الخطاب مُصدِّرَه الباث ومتلقيه المستمع، إذ تستفيد هذه الحجج طاقة إقناعية بالاستناد إلى علاقتها المنطقية الرياضية، فهي لا تتكئ على عالم التجربة مثل الحجج البلاغية، ولعل أهم ما يميزها هو إنَّها محل اتفاق واسع ونجاعة فائقة ما بين طرفي المحاججة، ممَّا يجعلها قريبة من الاستدلال المعرفي[٢٦] . وهذهِ الحجج هي:

١–التناقض والتعارض : هنا الكلام بعيد عن النظام المنطقي الذي يستتبع قوانين النقض وصوره ؛لأنَّه يعطي نسقاً مفككاً في الخطاب ، لذا استغني عنه في الحجاج واستند إلى التعارض ما بين اطروحتين تكون إحداهما صحيحة والأخرى خاطئة[٢٧]، فالمحاجج يعمل على اقناع المتلقي بالفكرة التي قد أوردها في سياق خطابه الإقناعي ، ويحمله على أن يعرض عن ما يقابلها من أفكار مختلفة ، ومن أمثلته : ((وممَّا هو معلوم بالضرورة أيضاً أنَّه لا يمكن حفظ شرف استقلال أية أمة أو قومية ، وحفظ خصائصها الدينية والوطنية ، إلّا إذا كان النظام الحاكم فيها منتزعاً منها ، وكانت الإمارة عليها من نوعها ، وإلّا ذهب ناموسهم الأعظم ، وشرف استقلالهم ، وقوميتهم هباءً منثورا ، وإن بلغوا أعلى درجات الثروة والقوة ، ونالوا ما نالوا من التقدم والرقي))[٢٨] بُنيَت العلاقة الحجاجية على وفق التخالف ما بين الأحداث الناتجة عن فعل المجتمع فيما يخص الحالة السياسية التي يعيشها وطبيعة نظام الحكم الذي يسودهُ ,فحتى تتم استقلاليته لابدَّ من انبثاق كل ما يمس إلى الدولة بصلة من صميم ذلك المجتمع مراعيا قيمه الدينية والعرفية والأخلاقية ، وبعكس ذلك فهو تسلط واستبداد يؤدي إلى ضرب تلك القيم الكبرى ,بل وربَّما يسخرها الحكام لأجل مصالحهم بما يخدم سطوتهم على تلك الشعوب ، فهذه التقنية التي وظفها الشيخ النائيني في خطاطته الكلامية كونت بعداً تأثيرياً كبيراً يشدُّ من ذهن المتلقي ويجعله يعقد حالة مقارنة ما بين منهجين في إدارة الدولة والحكم ,أحدهما يعطي مساحة تحرر ,والآخر يغلقها بكل ما أوتي من قوة ، فهذه الحجة تمثل أفضل طريقة عقلية يدركها ذهن السامع بشكل واضح بعيد عن التعقيد، وتوصل إلى بيان الحقيقة من خلال طرح الفكرة وما يعارضها ،وهذا التقابل يساعد على تساقط ما هو مخالف للصواب ويثبت الصائب ، من أجل أن يُفهِم المحاجج متلقيه بالأفكار التي تدور حول البحث نفسه ومن ثم التفكيك بينها على وفق الوقائع والمواقف والحقائق[٢٩] ، ومن ثمَّ الوقوف على الفكر الصحيح الموافق لمبادئ العقيدة الإسلامية والحافظة لقيمة الكتاب العزيز .

٢–حجة التحديد والتعريف : وهي إحدى تقنيات الحجج الشبه منطقية التي يقع مدارها على التعريف من أجل بيان المعرَّف من خلال المعرِّف ، وهذا يقترب من عمل المنطق في وضع الحدود والرسوم التي من خلالها يتم التعريف بالأشياء ، إلَّا أنَّها لا تأخذ بالقواعد المنطقية الصارمة للتعريف ,بل تستند إلى حالة التوضيح من أجل الإقناع .فالتحديد يقيم علاقة تماثل بين المعرِّف والمعرَّف ؛لأنه يعطي معنى لشيء ما قد يكون غير مفهوم من أجل تهيئة المستقبِل لقبول الحجة التي يريد إقناعه فيها[٣٠].وقد وظفها الشيخ في كتابه كوسيلة لتعريف بعض العناوين مثل :((وبغض النظر عمَّا استجليناه من حقيقة الحرية المهضومة المغصوبة وما أبداهُ الأنبياء والأولياء في أمر استنقاذها من الغاصبين فقد تبين لك أنَّ حقيقة الاستبداد الذي تنتهجه الدولة الغاصبة هي اغتصاب الحرية ، وأمَّا الدستورية فهي تعني فيما تعنيه استرداد الحرية من الغاصبين . وأما مسألة اتساع المشارب وتعددها فليست لها أي صلة بهذا الموضوع))[٣١] , يعطي الشيخ في هذه الحجة ومضة تعريفية مختصرة لما أراد بيانه وترسيخه في مؤلفه هذا محاولاً انتزاع الخضوع من قبل المتلقي للقبول بما يُطرَح فهو بيَّن إنَّ المستبدة سلب الحرية التي أرسل الله الأنبياء والأولياء لتثبيتها ورفع كرامة الإنسان عالياً استناداً إلى قوله تعالى ((ولقد كرَّمنا بني آدم)) ، في حين الطرف النقيض منها أو المقابل لها هو الدستورية التي تعني إعادة تلك القيمة التي أصبحت مفقودة بفعل الظالمين الذين حرَّفوا شريعة سيد المرسلين وعبدوا الخلق

لطاعتهم مغترين بما استحوذوا عليه في هذه الدنيا من سلطة ووجاهة وسطوة ، ليكون بذلك الواقع واضح أمام المرسل إليه . إن من وقف مع القسم الثاني فلا يحصل إلّا على العبودية ومن رفضها وقبل بالقسم الأول (المشروطة)هنا يكون حرا متماشياً مع منهج السماء . فالصيغة الموجزة للتعريف تقدَّم العلم على إنَّه بديهياً غير قابل للدحض ,وإنَّ هذه القواعد التي يرتكز عليها غير قابلة للتبديل.[٣٢]فكل ما يستعمله المتكلم من مفردات وتراكيب وتعريفات تعكس موقفه من هذا الملفوظ القولي وتجعله في نسقٍ تصوري يسهم في التأثير بتحديد موقف المتلقي اتجاه ذلك الملفوظ [٣٣].

٣-حجة العلاقة التبادلية (قاعدة العدل) : تخضع هذه الحجة إلى مبدأ التماثل في العمل ما بين الأفراد الذين ينتمون إلى صنف واحد وبالكيفية نفسها، فهي علاقة منطقية لكن حجتها تبقى شبه منطقية؛ لأنَّها أسندت الحكم إلى أمرين الفرق بيّنٌ بينهما مع أنَّها جعلتهما يبدوان كأنَّهما متعادلان[٣٤]. وقد وظَّفها الشيخ في تنبيهه قائلاً :((وبالجملة نقول كما أنَّ ضبط أعمال المقلدين في أبواب العبادات والمعاملات من دون الرجوع إلى الرسائل العملية أمر ممتنع ، فكذلك ضبط تصرفات المتصدين ومراقبتهم فيما يخص أمور البلد السياسية ممتنع أيضاً ، ما لم يوجد هناك دستور مدوّن))[٣٥] فالغاية الحجاجية تأتي بتوظيف قاعدة العدل التي تقتضي التعامل بالمثل مع المواقف المتناظرة ، إذ عالج قضايا يقرب بعضها من بعض ,ولاسيما إنَّ تلك الأعمال لها تأثيرها على الإنسان بكل تفاصيلها ، فكما إنَّ المكلف محتاج للضابطة الشرعية ، فالسياسي الحاكم للبلاد يحتاج إلى الدستور (المشروطة) حتى تنضبط كلتا المعاملتين ويكون موقف الجميع بعيداً عن الوقوع في المحاذير والتقصير إضافة إلى حصول استقرار في النظام السائد كونه يسير وفق ما كتبه القانون ,وهنا كل من يأتي لسدة الحكم يعتبر مأمون من الناحية التسلطية لوجود ذلك القانون فضلاً عن الهيئة المؤلفة من أعضاء تراقب تطبيقه ، كما أنَّ الرسالة العملية لها مبرر شرعي لوجود المراقبة الإلهية من قبل الملائكة ، فهذه المقابلة وإن اختلفت من حيث المصداق لكنَّها قربت من جهة التمثيل والتوضيح فأعطت الشرعية للدستور مثل ما هنالك شرعية للرسائل العملية ، فتوظيف هكذا قواعد ضمن طيات الخطاب الإشهاري تعطي خاصية شكلية تجعل من العلاقة ما بين الطرف (أ) حاجة المكلف لكتب الفتوى ، والطرف (ب)حاجة الحاكم للمشروطة ، علاقة مبنية على التقابل والمقارنة فيما بينها بشكلٍ عادل ومشابه لمصاديق كل منهما ، وهي تقتضي أن يكون القارئ مكان المتكلم ليفهم الحجة التبادلية فيما بين الطرفين، وهذا التوائم ما بين الباث والمستقبل عُرِف بالملائمة الحجاجية ، التي لها دور كبير في تحديد وجهة الخطاب ما بين الطرفين، ولعلها تحمل جميع مقاصد المتحدث وقيمه ومبادئهِ والتزاماتهِ ومقدرتهِ في التعامل مع الحجج الواردة في سياقها الذي يوصل إلى رسوخ الفكرة والإقناع وتفاعل القارئ معه وفق مشروعٍ حجاجي يشترك طرفاه بتبادل العمل فيما بينهما[٣٦] .

٤-حجة التعدية : وهي علاقة صورية ذات طابع شبه منطقي إذ تمكن من إيجاد رابط ما بين(أ) و (ب) من جهة و (ب) و (ج) من جهةٍ أخرى ,وبالنتيجة فإنَّ العلاقة هي نفسها تكون ما بين (أ) و (ج) كما في المثل القائل عدو عدوي صديقي، فيتضح إنَّ هذه الحجة تتضمن معاني التساوي والتضمين والتفوق[٣٧]،ولهذه الحجة الأثر الكبير في نجاعة الخطاب الإقناعي ؛لأنَّها تتضمن الربط ما بين مكونات متنوعة بشكلٍ غير مباش، أو تصنفها على أساس هذا الترابط مثل لو فاز اللاعب (أ) على اللاعب (ب) ثم فاز (ب) على (ج) لأمكن لـ (أ)أن يفوز أيضاً على (ج) لأنه فاز على (ب) قبله فهذه الصيغة الشبه منطقية تكون ضرورة لا زمة إن أُريد الابتعاد عن المواجهة المباشرة لجميع الأطراف[٣٨] . وممَّا أورده الشيخ في خطابه من هذه الحجة : ((إنَّ السعي الحثيث من أجل تغيير وجهة الحكم ما هو إلَّا لاستنقاذ أسمى ما وهبه الله عزَّ اسمه من أيدي الغاصبين وهي الحرية ، وحقيقة تغيير مسار الحكومة الغاصبة تكمن في فوز الشعب بهذهِ الموهبة الكبيرة))[٣٩] إذ يُلاحظ توظيف حجة التعدية القائمة على علاقة التضمين ؛لأنَّ القول بهذه الجزئية القائمة على الواقع الحقيقي الذي يمثل واحدة من أساسيات الدين الإسلامي كون الحرية هبة الله لجميع الناس ,فالشيخ يريد أن يبين شموليتها لنواحي الحياة لتحقيق السعادة للبشرية على وفق حجة التعدية على النحو التالي :

إنَّ تغيير الحكم ⟷ لكسب حرية الناس.

وكسب الحرية ⟷ يكون بتحجيم الحاكم بدستور.

ن- حصول النَّاس على العيش الكريم والرغيد بعيداً عن الظلم.

فحجة التعدية أفادت نتيجة الملجأ والحصن الذي تكونهُ المشروطة من تأثير في حصول الشعب على نعمة الحرية والتخلص من هيمنة الطواغيت، وحصول هذه العلاقة نتيجة ما رصده الشيخ من أفكار تحررية وتجديدية في نظرية الفقهاء للحكم كي يتحصل من خلالها على

رضا المتلقين، فترسيخ مثل هذه المقولات لابدَّ من استنادها لقوة حقيقية وهي إرادة الله التي جعلت من الخلق أحراراً لا عبيدا ولهذا استحقوا أن يضحي البعض من أجل تلك القيمة العليا ورفض كل ما يسبب الحلول دون حصولها.

ولكي يُرسِّخ الشيخ أثر التسلط في استعباد الناس يستخدم الحجة نفسها ليبين تلك الحقيقة التي يعاني منها الناس: ((ومحصّل القول ، إنَّه مادام الظلمة والطواغيت يسعون لإلغاء هذا اللجام وتكريس طغيانهم من خلال إثارة الفتن والقلاقل الداخلية وافتعال الأزمات والمشاكل على الحدود وغيرها من الحيل والمخططات الخبيثة بهدف صرف قلوب الناس وإشغاله ، نبقى نحن عبدة الظلمة نتحرك ضمن الخطة المعدة لهدم هذا الركن الأساسي لصرح السعادة))[٤٠] فتظهر في هذه الحجة علاقة أساسية تضبط نسقها، قائمة على استنتاج علاقة جديدة منطلقة من توظيف عنصر ثالث ليتم من خلالها إثبات صدق العلاقة ما بين العنصرين الأول والثاني وهو كالآتي :

كل طاغية يثير المشاكل ويلهي الناس.

كما غن الهاء الناس لأجل استعبادهم.

ن- إنَّ الطغاة يريدون عبودية الناس واسترقاقهم.

ليعطي بذلك صورة واضحة عن خطورة (المستبدة) التي دافع عنها الكثير ممَّن ينتسب للدين وكأنَّهم غضوا الطرف عن مساوئ تلك الحالة المؤدية إلى الاستخفاف بالقيم وحقوق الآخرين ,فهذه الحجة أفادت نتيجة مسلَّمة وحتمية تدل على مصداقية حصولها ثبوتاً عند تمكن الظالمين الذين لا يستندون لقانون الشرع المبين ، بل عملوا على طاعة الشيطان في كل آن وحين ،لذا كانت منهجيتهم زرع المشاكل والنعرات ما بين أبناء المجتمع أو توهيمهم الناس بعدوٍ مفتعل أو دفع بعض الدول إلى الحرب من خلال إثارة موقفها بأيّ طريقة . كل ذلك لإجل البقاء في سدة الحكم والتصرف في مقادير الخلق ، بدون وجه حق، وقد صرَّف الشيخ في خطابه الإشهاري هذه الحجة التي تظهر نتائجها بما يُلائِم الحقيقة لدى جميع المسلمين، وإن خالفوهم ، فيعمدون إلى ترسيخ قولهم وبيان ارتباك وفساد رأي غيرهم ؛لأنَّ حجة التعدية ترسم ميداناً لعلاقة قائمة على التفوق ما بين توجهٍ وآخر أو التسوية بينهما على وفق الاستناد إلى المنطوق اللفظي الحاكي عن الواقع الخارجي اعتماداً على الاحتمال المؤول بقاعدة شبه منطقية تثبت صدق المدعى الذي يرسلهُ الباث ليتحصل على نجاعة في الخطاب تؤثر في قناعة الجمهور المتلقي [٤١] .

٥-حجة تقسيم الكل إلى أجزائه :وهي من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية وتقوم على تصور الكل مكون من أجزائهِ، ويشترط فيها ذكر جميع الأجزاء والغاية منها إثبات وجود الكل من خلال بيان الأفراد[٤٢]، وهذه الحجة لم تكن وليدة البلاغة الجديدة ,بل نجد ما يقترب منها في البلاغة القديمة وهو التقسيم الذي يُستعمل في المحسنات البديعية ليضيف كل عنصر إلى ما يناسبهُ[٤٣]، إلّا أنَّ هذا التقسيم أصبح له ميدان مؤثر في الحجاج من خلال توجيه الخطاب وقوتهِ الإقناعية ؛لأنَّ العقل البشري يميل إلى تصنيف الأشياء بحسب مكوناتها ليسهل معرفة الكل ، ومن أمثلت هذه الحجة : ((حقيقة السلطة المجعولة في الدين الإسلامي ؛ وهو في بيان الأمر الأول ، والكلام فيه يقع في مقامين : الأول: في بيان مبدأ تحديد اختيارات السلطنة ، والحكومة المجعولة ، والذي نصت عليه جميع الشرائع والأديان ، وذلك من خلال إقامة الوظائف والمصالح النوعية . الثاني : في الكشف عن درجة هذا التحديد وبيان حقيقتهُ))[٤٤] يشرع كل مؤلف في أول البحث في وضع خارطة تصنف الموضوعات الرئيسة التي يتناولها ليعطي بذلك صورة مختصرة عن البحث بكاملهِ تجعل من القارئ منشداً لما سيأتي في المتن من موضوعات وأفكار قد تهمه في مجالات متنوعة ، هنا بما أنَّ الغاية هو السلطة وتحديد وظائف الحاكم عقد الشيخ النائيني هذا الفصل ليبين فيه رأي الدين في وظيفة الحاكم وهي : تربية المجتمع وتوفير حياة جيدة له لينعم بالسعادة بعيدا عن كل المنغصات ، ولا يكون الحاكم يعمل لأجل سد شهواته فحسب ، وهذا في القسم الأول ، أمَّا القسم الثاني فينظر في الطريقة التي يدار بها الحكم وفق مذاهب المسلمين إلّا أنَّ النتيجة هي واحدة لا تختلف عن الأولى كلها يراد بها محاربة الطغيان ووضع القانون المناسب لحرية الإنسان . فلم يكن وضع هذه الحجة من دون مقصدية في خطاب المُحاجج ,بل لها بعدٌ إقناعي يريد من خلاله الوصول إلى فهم القارئ للتكرار، بما يتناسب ومحل الموضوع كونهِ يُمثل عتبةٍ مهمة للكتاب، فهو يريد أن يحمِّلها كل أهداف التأليف والموضوعات المتصلةِ به ممّا يدفعه إلى تضمين هكذا حجج منجعة فيها ليحقق الغاية الحجاجية منها.

٦-حجة المقارنة: وهي من الحجج الشبه منطقية ذات الصيغة الرياضية، وظيفتها المقارنة ما بين الأشياء في حقيقتها من أجل إثبات حجة ما في اتجاه معين. فهي عملية تقابل مركزة ما بين طرفٍ وآخر لإظهار مميزات كل واحد منهما ولا يقصد به التشبيه ما بين المتقارنين، ومن أمثلتها المقارنة ما بين المستبدة والمشروطة: ((وبالجملة فإن أساس النوع الأول من السلطنة مبني على الاستعباد واسترقاق الأمة وفرض

التحكم والأهواء عليها، وعدم مشاركتها –فضلاً عن مساواتها– للسلطان ويتفرع على ذلك عدم مسؤولية السلطان عمَّا يقوم بهِ. كما إن النوع الثاني مبني على أصل تحرير الأمة من هذهِ العبودية ومشاركة أفراد الأمة ومساواتها مع شخص الوالي في جميع الشؤون ، ويتفرع عن ذلك مسؤولية الوالي عما يقوم بهِ))[٤٥] إذ ينطلق الشيخ من اعتقاده الجازم المطابق للواقع في أنَّ الغرض من هذه المقارنة هو ترسيخ حجة الانتفاع وترك المُضر في فهم طريقة الحكم وإدارة أمور الخلق ، فتنتج قوة إقناعية مستندة إلى الأحكام الدقيقة التي تفصل ما بين كل طرف من أطرافها ، فهي تمثل معادلة بسيطة فيما بين أطرافها من خلال بيان المتشابهات وفرز المختلفات بينها، فهذه الحجة تسهل على المتكلم في خطابه من ناحية اختزال الكلام بشكل مبسط ويسير ويبعده عن التطويل والإسهاب لذا ركَّز الشيخ خطابه عليها معتمدا على ما تثيره من اختلافات تشخص الفارق ما بين المنهجين في السلطة وهذا في السياسة يُعدُّ من أسهل الطرق في إسقاط الخصوم وبيان ضعف طريقة المقابل وبما أنَّ الشيخ واجه اعتراضات كثيرة ضد مشروع المشروطة الدستورية فدفعه هذا الأمر إلى عقد مثل هذه الحجج المتقابلة الأطراف لتوحي إلى مستقبلها بالأهمية القصوى التي يراد ايصالها له ، وهدم فكرة الحاكم يمثل ظل الله في الأرض وأنَّه واجب الطاعة وغير ذلك ،بل لابدَّ من العمل على إضعاف كل حكم يقوم على الاستبداد وبالأخص عند المسلمين، وهنا يكون أيسر على المتلقي قبوله وفهمه من دون امعان نظر أو بذل جهد أكبر، ويعود هذا إلى التفاعل الحاصل ما بين طرفي المقارنة إلى إدراك الروابط الواقعية بين ما يقارنه المتكلم استناداً لأصولها من أجل اظهار البعد المستهدف ، وبالمحصلة يتوصل المحاجج إلى إنشاء نقطة وصل وربط تمثل جسراً رابطاً ما بينه وبين الجمهور للحصول على نتائج ايجابية من خلالها ، كما إنَّ المتكلم يعمل على تحديد الألفاظ والمعاني التي توضح الاختلاف ما بين مدلولات أطراف المقارنة[٤٦] . فيظهر بذلك كل رأي خالف الشيخ ووافق المستبدة أنه بالضد من إرادة الدين والشريعة في تحقيق العدالة والمساواة والحرية للناس.

الحجج المؤسسة على بنية الواقع: حتى يكون الخطاب الحجاجي ناجعاً ومؤثراً في مقصده لابدَّ للمُحاجِّ ألّا يعتمد على شكل واحد من الحجج، بل ينوع فيها ويضمِّن خطابهُ الأنواع التي تكون مناسبة لموضوعهِ، لذا أكد بيرلمان على أنَّ الحجج الشبه منطقية لوحدها غير كافية لاعتمادها على النظام الصوري المنطقي في تثبيت الحجة على المتلقي، وهذا غير كافٍ ممّا يستدعي إدخال الحجج المُؤسسة على بنية الواقع ليستكمل فيها النجاعة الإقناعية في الخطاب ذات الوجهة الحجاجية وتمكن المتكلم من تحقيق الاستراتيجية الإشهارية لمُحاجتهِ[٤٧]. وتتمثل هذه الحجج بما يأتي:

١–الحجة السببية : حتى يَكون الخطاب مقنعاً في استراتيجيتهِ يتطلب من الباث ترسيخ التقانة الحجاجية التي تربط ما بين السبب والمُسبِّب، ليكون المعنى المقصود واضحاً وتُعرف من خلالهِ الغاية من أيِّ فعلٍ قد ذُكِر ، فهذه الحجة عملها هو بيان العلاقة ما بين الفعل والسبب الذي أدى إلى حدوثهِ ، لأنَّ ذكر السبب من أهم الطرق في إثبات قضية أو رفضها[٤٨] ، وهذا ما يؤكده أوليفيي روبول ((ما تريد الحجة اثباتهُ خصوصاً إنَّما هو حكم قيمة ، تبين قيمة المعلول اعتماداً على قيمة العلة ، أو العكس))[٤٩] ، وقد وظف الشيخ النائيني هذه الحجة كثيراً في خطابه ،وهذا راجع إلى نوعية الموضوع الذي طرحه ممَّا استوجب منه تعليل ما يطرحه رداً على المنتقدين والرافضين ، فمن الأمثلة على ذلك : ((وفي هذهِ البُرهة من الزمن حيث وصل السير التراجعي إلى نقطتهِ الأخيرة بحمد الله وحسن تأييده ، وانقضى عهد الذل والخضوع لإرادة الحكام الجائرين ، وتصرَّمت سنو الاسترقاق اللعينة ، انتبه عموم المسلمين ، وعرفوا مقتضيات دينهم ومذهبهم . وذلك بفضل الدور الذي لعبهُ الزعماء الدينيون في إرشادهم وهدايتهم. فعلم المسلمون أنَّ الحرية التي منحها الله سبحانه لهم تصطدم مع الرِّقيّة لفراعنة الأمة ، واستأنسوا بالحقوق المشروعة ، كالمساواة والمشاركة في جميع الأمور مع الحكام))[٥٠] يوضح الشيخ في بيانه التقديمي لمؤلفه إنَّ عاملية التعبيد لدى الحكام أخذت تخفت جذوتها وذلك بفضل وعي الأمة وهذا الوعي استند إلى مُقوِّم رئيسي وفاعل ألا وهو علماء الأمة الذين بفضلهم صارت تلك اليقظة وانتهض المسلمون من سباتهم ، فأعطى الشيخ في ذلك العلاقة ما بين السبب والمسبب القائم على القاعدة العقلية بأنَّ الأمور لا تخلو إلا من علة أو معلول ، وبهذا يكون العلماء هم سبب نهضة الأمة وتخليصها من العبودية ؛لأنَّهم ورثة الأنبياء والأئمة ، وإنَّ هذه الزعامة المعنوية أفضت لمثل هذه المواقف ممَّا اضطر الطغاة إلى محاربة تلك الثلة الطيبة والنقية من علماء الشيعة الأتقياء ؛لأنَّهم بينوا أهمية التحرر والعدالة في دين الإسلام الذي اتخذ منه الطغاة ستراً للتسلط على الناس والتلاعب بمقدراتهم ، فهذه الحجة استندت إلى حقيقة واقعة في حياة الناس ؛ لذا يكون تأثيرها في ضمن سياق الحجاج عاملاً منجحاً ؛ لأنهُ أوضح تلك الفكرة العقلائية التي غابت عن البعض ممَّن هاجم الشيخ حين تكلم عن تحجيم سلطة الحاكم ، وكأنَّ تحجيم الحاكم أصبح محرَّماً، وتعبيد الناس أصبح مباحاً ، فهذه العلاقة السببية تشد انتباه المتلقي وتجعله مُتقبلاً لما يُطرح أمامه بكونه العامل الأساس في عملية التخاطب وهذا ما يُعطِيه مساحة جيدة لتقويم الخطاب أو العمل التأليفي الذي قام به المؤلف[٥١].

٢-الحجة البراغماتية (النفعية): تعد العلاقة ما بين السبب والنتيجة أو العكس هي المنتجة لهذه الحجة ؛لأنَّها تهدف إلى تحديد قيمة الأشياء أو عدمها بالاستناد إلى النتائج التي آلت إليها سواء أ كانت هذه النتائج ايجابية أم سلبية[٥٢] ، ومن أمثلتها ((اتضح لك ممَّا شرحناه أنَّ الهيئة المسددة التي يُراد تأسيسها وفقاً لمذهبنا نحن الإمامية تحل محل العصمة بدرجة ما ، ووفقاً لمباني أهل السنة تحل محل القوة العلمية وملكة التقوى والعدالة . والهدف من هذهِ القوة هو حفظ السلطة الإسلامية وصيانتها من الانحراف والتبدل ، ومراقبتها لئلا تتجاوز الحدود المرسومة لها ، وإبقاؤها داخل النطاق الطبيعي لها))[٥٣] , بُني الخطاب الإشهاري على وفق ما تنتجه الأسباب من فوائد مردها على المجتمع والأمة بشكلٍ كبير ومؤثر يخضع لفاعلية الاعتقاد الديني المترسخ لدى أبناء الأمة ، فإنَّ تأسيس تلك الهيئة ليس مخالفاً لقواعد الدين ,بل إنَّ الشارع عبَّد الناس بالرجوع إلى السيرة العقلائية ، وهذا الفعل عقلائي بما يورثهُ من نتائج مهمة ونافعة تجعل من الحاكم يدور بمدار الدين لا متخذاً للدين وسيلة لقضاء مصالحه الشخصية والتحزبية ، نعم إنَّ هذه العلاقة أورثت قناعة مُحاجية يتقبلها الجمهور المُستقبل للكلام ,ولاسيما أنَّه يصب في صالحه لغرض الارتقاء به ورفع رايته الخفاقة عالية في سماء الحرية والمساواة ، وترك كل ما فيه هيمنة وعبودية لكيان أو سلطة أو حاكم ، ممَّا يجعل المتصدي لإدارة البلاد خائفاً يعلم بوجود من يراقبه ويحسب عليه خطواته ، وإنّ الشيخ يبين إنّ ما طرحه يحضى بالمقبولية لدى المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، فالربط ما بين السبب والنتيجة على وفق قانون النفعية يرسخ عملية التواصل الحجاجي نحو الهدف الذي يريد أن يصل اليه المتكلم، لكن هذا الهدف لا يحصل من دون الاستناد إلى وظيفة اللغة التفاعلية وبها يحصل الإقناع ويتجه القارئ للمطالبة بتلك الهداف ويريد تطبيقها على أرض الواقع بمصداقية فعلية بعيدة عن التسويف والتعقيد .

١-حجة الاتجاه : وهي حجة قائمة على التحذير من استعمال شيء ما أو الولوج إلى عمل غير نافع كونهِ غير خاضع إلى المسلمات التي يقول بها المتلقي، ولا يفصلها عن ما يدعيه المُحاجِج فالمتكلم يستخدم هذه الحجة كلما أراد اثبات رؤية معينة يستهدف بيان صوابها من عدمها ،وهذا يعتمد أيضاً على قانون التغير الكمي والنوعي[٥٤]، فهي ذات طابع توجيهي نحو غاية ما يريد المُرسِل أن يوجه المرسَل اليه نحوها بما يتناسب واعتقاد الطرفين ومدى التسليم الذي تخضع اليه هذه الحجة عندهما . ((والآن وبعد أن اتضح لك الأمر وعرفت أنَّ المسيحيين بطائفتيهم القديمة والحديثة ومع اتساع مشاربهم وتعدد آرائِهم قد اتفقوا في هذهِ المسألة ، لا بدَّ وأنَّك استشعرت مدى هشاشة الرأي الذي يربط بين التحرر من نير طواغيت الأمة وحدوث الاختلاف والتشرذم في الأمة ، فهذهِ المغالطة سوف لن تحقق لأصحابها غرضهم بعونه تعالى مع ما بذل من جهد جهيد لترسيخها))[٥٥] أراد الشيخ من خلال هذه الحجة تبيان المغالطة التي وقع بها الكثير ، مستندين إلى أنَّ التحرر من هيمنة الطواغيت قد يؤدي إلى التشتت وتفرق الناس ؛ولكن ولو سلمنا بهذه القضية ، فإنَّ اجتماع الناس على الباطل لا يعني صحة المنهج بل إن تفرقهم على الحق أفضل بكثير من تلك العبودية المقيتة ، ليكون التوجيه الحجاجي في ذلك هو التحذير من مغبة هذه الأقاويل التي تريد النكوس للأمة ولا تريد رفعتها وتقدمها و، وقد دعم رأيه بتجربة سابقة وهو ما حصل عند الغربيين أبان عصر النهضة حين حاول الكثير من المفكرين الثورة على الاستبداد الكنسي المتمثل بالقساوسة المتلبسين بالدين ,وهنا أيضا أثيرة شبهة التفرقة ، لكنَّهم مضوا في التغيير وإن كان فيه مخالفة لتعاليم السماء ، وهذه الحقيقة تجعل من المتلقي يعيش الحقيقة التي يريد الشيخ ترسيخها في ذهنه للعمل من أجلها ؛لأنَّ الإنسان ليس من السهل تغيير أفكارهِ ضمن هكذا مواقف وأحداث إلَّا إذا حصل له بيان يشده وموقف يجذبه من قبل المتحدث .

٤-حجة التبذير : وهي من حجج الاتجاه التتابعي ذات النزعة الاتصالية وإن كانت بعيدة عن قانون العلية الراجع إلى العلاقة السببية ، فهي تدعو إلى تمام العمل الذي انجز بعضه وتوقف عنه رغم الجهد المبذول فيه فَتَرَكَهُ يُعد مضيعةً قد تفسد العمل ككل ، فيصير لزاماً على الفاعل اتمام عمله[٥٦]، فهذه الحجة ترفع من مقام العمل الذي يُراد إكماله وتشَرِّع التمسك بالوسائل والغايات المتعددة من أجل انجازه . والتبذير بهذا المفهوم حاضر بشكل لافت في تنبيه الأمة ((ولذا فمن أجل تصحيح الأعمال المتعلقة بالأمور المالية نسير على السيرة النبوية المقدسة في صرفها في المصارف اللازمة لحفظ البلاد ، وذلك بإخراجها من أفواه الناهبين الأجانب الذين ابتلعوها نتيجة لخيانة بائعي الوطن وتوزيعها بطريقة علمية صحيحة ، وبنسب متساوية على طبقات أرباب الأملاك والتجارات والمواشي وغيرهم ، مع الأخذ بنظر الاعتبار القدرة المالية والتمكن من الانتفاع ، وإيصالها كذلك إلى الموظفين والعمال بالمقدار المتناسب مع خدماتهم للشعب))[٥٧] , فالشيخ يبني خطابه على وفق هذه الحجة ليعطي صورة مهمة عن ما يجب فعله ضمن سياسة المشروطة والهيئة التي تراقب عمل الحاكم ، بأنَّه هنالك أمر غاية في الأهمية وهو المال الذي يمثل عصب الاقتصاد للدولة وإنَّ مسؤولية الحفاظ عليه وجبايته هو من واجبها ؛ لذا تطلب بذل المزيد من الجهد لإعطاء تلك المسألة الحلول الناجعة عن طريق وضع الخطط والمناهج التي تسير عملية الإدارة المالية وفق الدين الإسلامي وكما كان يفعل النبي حين يأخذ الخراج من الأغنياء وأصحاب الأراضي ويعطيه إلى الفقراء ويسد عوزهم فيه ، كما إنَّ في ضل وجود الدولة المستبدة والطواغيت

انحصرت هذه الأموال بيد أفراد معدودين وتركوا الباقين من عامة الناس بلا معونة فهؤلاء استأثروا بالفيء وحدهم ، مع وجود فقر منتشر في وسط المجتمع ، فهنا تأتي وظيفة الهيئة التي اقترحها والقانون الذي يسَّرَ أمر المال، فتؤخذ الحقوق من الغاصبين وتعطى لمستحقيها بعيدا عن الإسراف والتبذير والتفضيل بين الناس ,بل وضع خارطة عمل صحيحة تدير مورد تلك الأموال وتُقسَّم بحسب مواطن الاحتياج ، ويعطى منها للموظفين القائمين على جمعها وتوزيعها ومن ثمَّ يُحفظ الباقي في أماكن ليُنتَفع بها في وقت حاجتها ، فغاية الكلام هنا هو التعليم والتثقيف بالقرآن وإنَّ هذه الحجة جاءت ضمن سياق خطاب المقدِّمة لتبين هذه الغاية إذ تلعب الغائية المرفوضة من قبل العلم دوراً رئيسيًا في الفعال الإنسية ، ويمكن أنَّ نستخرج منها العديد من الحجج المؤسسة جميعها على فكرة أنَّ قيمة شيء ما متعلقة هي بالغاية التي تجعل الشيء وسيلة لها لأنَّ هذه الصورة الغائية التي توجد في أذهان البشرية هي من تتحكم في تفكيرهم وبالتالي تؤثر على سلوكهم وتصرفاتهم اليومية خلال علاقة ما يدركوه بما يفعلوه [٥٨]. فاعتمد المفسر في خطابه على عاملي القصد الذي بين من خلاله الهدف الذي يريد الوصول اليه ، والعامل الآخر هو السلطة التي استند إليها وهي السيرة النبوية ، ممَّا ساعده على بلورة خطابه نحو الاستراتيجية التي تقنع القارئ .

٥-حجة التبرير : وهي من الحجج التي يعمل فيها المُحاج على توجيه الفعل السلبي والغير صحيح إلى أطراف وعوامل خارجية وبذلك يكون فصل بين ما يدعو إليه الخطيب والفعل السيء الذي يريد التخلص منه[٥٩] ، ((ومن هنا تظهر جودة استنباط بعض علماء الفن عندما قسم الاستبداد إلى استبداد سياسي وآخر ديني وربط كلاً منهما بالآخر ، واعتبرهما توأمين متآخمين يتوقف أحدهما على وجود الآخر ، وقد اتضح أيضاً أنَّ قلع هذهِ الشجرة الخبيثة والتخلص من هذه الرقّية الخسيسة لا يكلفنا أكثر من الوعي والانتباه ، وهو في النوع الأول أسهل منه في النوع الثاني الذي يصعب علاجه ، وربَّما يؤدي أيضاً إلى صعوبة العلاج في النوع الأول أيضاً))[٦٠] ,وضح من خلال هذه الحجة سبب نظرة العلماء إلى الاستبداد بوصفه عامل ضعف على الأمة ؛لأنَّ المتسلطين يرجون بذلك قوتهم وتمسكهم بالحكم على حساب حقوق الناس ، لذا عبَّر عنها بلفظ بليغ الشجرة الخبيثة وهذه فيها تناص قرآني يشير إلى الشجرة الملعونة ، وأيضا يدخل التناص التأريخي وهو الطواغيت الذين مثلوا الخبث بكلِّ تفاصيله ,وهنا يدخل عاملية التبرير في الفصل مابين الفعل الشنيع الذي يحدث جرَّاء التسلط في الحكم والدين ، وبين رأي العلماء في نبذه والتخلص منه ، ليعطي بذلك الشيخ قارئهِ شحنة من الاندفاع نحو التحرر من هيمنة الظالمين والرجوع إلى منهج الإسلام العظيم وهذا يقوم على الفهم وبالأخص إنَّ النوع الثاني من الاستبداد يكون أصعب في المواجهة ؛لأنَّ صاحبه يتمتع بمنصب ديني وأهمية يربطها بالإيمان كما كانوا يقولون الحاكم هو ظل الله وغيرها من مختلقات الانحراف والتسلط الأعمى القائم على ترك الشريعة والأصلح والذهاب نحو الأفسد والأظلم ، وهذا ما يبرر صنيع الشيخ في اصداره هذه الرسالة لينبه الناس عن شر مخاطر ومفاسد التسلط بنوعيه ، ليكون حافز نحو تخلصهم منه ونيل كرامتهم المسلوبة ، وبناء أوطانهم بالشكل الصحيح .

٦- حجة الصفات : وهي من الحجج ذات الاتجاه التتابعي التي توصل ما بين وجهة نظر المتكلم والموضوع((فالصفات تنهض بدور حجاجي يتمثل في كون الصفة إذ نختارها تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع))[٦١]،فالصفة تمثل وسيلة جيدة للإقناع كونها تثبت حقيقة يمكن أن تبنى عليها حجج أُخرى تدل على متانة العلاقة ما بين الحجج التي وردت في السياق، ممَّا يعطي الخطاب ثراءً حجاجياً ينتج نجاعةً تؤثر في السامع[٦٢]. وهذه الحجة لم تكن بعيدة عن كتاب الشيخ في تنبيه الأمة في وصف المنتدبين للهيئة التي تراقب السلطة ((الإحاطة العلمية الكاملة في باب السياسة ، وبتعبير آخر الاجتهاد فيها ؛ كأن يكون خبيراً بالأصول الدولية المتعارفة ومطلعاً على دقائق الحيل المتداولة بين الدول وخفايا الأمور وعارفاً بالمسؤوليات المناطة بهِ وبمقتضيات العصر وبانضمام هذه الصفة إلى فقاهة المجتهدين المنتخبين لتمحيص الآراء وتطبيقها على الجوانب الشرعية تتكامل القوة العلمية اللازمة في مجال الإدارة السياسية للأمة وتحصل النتيجة المقصودة إن شاء الله تعالى))[٦٣] ,بما أنّ لكل مكان يتصدر له شخص لابدَّ من مؤهلات ترقيه لمثل ذلك ، ولعل صفة العلم هي الأهم إذ تمثل مرتبة مهمة لا يمكن التخلي عنها في أيِّ منصب أو وظيفة وكلَّما كانت المعرفة أكثر كانت لياقة المكلف بعمله أكثر واضبط لأنَّ المعرفة تتيح له التحرك بنطاق أوسع وتكون تطبيقاته دقيقة خاضعة للقوانين والأنظمة التي تصاغ ضمن دستورية الدولة ، وهذا ما يرجوه الجميع لدى كل من يتصدى ويريد العمل ضمن الوظيفة الحكومية ، وهنا الشيخ يخصص هذه الصفة مع الأخريات لمن يكون منتدباً ضمن الهيئة المسئولة عن متابعة عمل الحاكم ضمن بنود الدستور، ولعله خصص المعرفة السياسية أولاً بكونه سوف يتصدر إلى ذلك العمل ويحتاج إلى فهم منعرجات الفن السياسي وطرق التعامل الدبلوماسي وغيره مع الدول والسياسيين ، فهو يمثل بعد توليه ذلك المنصب واجهة البلد سياسياً وهذا ما يحتم عليه الذهاب بكل طاقته نحو فهم هذه المعارف ، فلو لم يكن بهذه اللياقة يكون بالضد من منفعته ,بل قد يتحول إلى العوبة بيد السياسيين الآخرين وهنا يدخل في ميدان المفسدة القائمة على المنفعة الشخصية وإفادة الإنسان نفسه ومقربيه بدلا من النظر نحو المنفعة العامة للأمة ، وعليه فكثير

من السياسات الخاطئة هي تنبع من مثل هذه الآفة اللعينة التي تجعل من البعض –على الرغم من جهله المركب– قيما على مقدرات الناس يتصرف بها بما يحلو له ويشكل في قابل الأزمان خطرا كبيرا حتى على الأجيال المتعاقبة ؛ لأنَّه قد يكون سبباً في تنشئة ثلة تجيد هذا الخداع مستفيدة من غطاء السلطة لها وهنا يستمد المتسلطين مشروعيتهم في الهيمنة على المجتمع واقتياده وفق رؤيتهم الخاطئة ، ومن ثمَّ ينعطف إلى من هم أوسع مسؤولية من المنتدبين ألا وهم صنَّاع القوانين الذين يحيكون بأقلامهم دستور وقانون البلاد أنَّهم لابدَّ أن يتحلوا بالفقاهة ؛لأنَّ هذه الصفة تجعلهم يضعون القوانين ضمن الإطار الإسلامي والحكم الشرعي فلا يخالفون الدين ويراعون عقيدة الناس ، ممَّا يسير الجميع نحو حفظ الحقوق وبقاء الدولة منقادة إلى الشريعة . فالخطاب يتجلى بتراكيبه اللغوية التي تفصح عن العلاقة ما بين الشكل اللفظي له وبين دلالته المعنوية. وبذا أصبح لكل خطاب شكل كلامي له سياقه اللغوي واللفظي الخاص به، وعليه تكون وظيفة المتكلم إمَّا الإخبار أو الطلب[٦٤] ,وهنا في هذه المقدمة جاء الباث مخبراً عن صفات المنتدبين ومن يراقب القوانين، وما تحلوا به من ميزات تجعل الخطاب محببا للقرَّاء فهو قد راعى العقلانية المطلوبة في التخاطب مع الآخر، ومحاولة جذبه إلى الفكرة التي يقول بها المُرسل.

٧–حجة السلطة: وهي من حجج التواجد التي يستعملها المتكلم من أجل تثبيت الفكرة التي يقول بها وتكون أكثر قناعة للمتلقي ؛لأنَّها ذات بعد يشتمل حمولات معنوية وايديولوجية كثيرة، فهي الحظوة التي تعد أساساً متيناً يستند إليه المحاجج في خطابه البلاغي كونها تمثل ذات أهمية يستقيها الباث من فئة معينة أو مرجع تراثي تكون عند المتلقي أكثر قبولاً فتساهم في قوة الحجج وإقناع الخصم[٦٥] وتنقسم إلى:

٧–١ سلطة القرآن الكريم : القرآن كتاب مقدس يمثل التشريع الأساس للمسلمين وهو معجزة نبيهم على طول السنين ففيه أصول الإسلام ، وتوظيفه في أيّ خطاب يعطي قوة اقناعية تمثل عنصر قبول لدى المُستقبِل وهذا ما نجده في خطاب الشيخ ((ومن القوى المشؤومة أيضاً إلقاء الخلاف بين الشعب وتفريق كلمته ، وبالرغم من أنَّ أصل هذه القوة الخبيثة وأساسها وتحققها في الخارج وصورها مستمدة من الاستبداد الديني وعبادة السلطان ، وغير مستقل عنه ، وإنَّ هذا يلزم منه أن لا يكون في عرضهِ ، ولكن بما أنَّ عمليات الاستعباد التي وقعت في التأريخ قديماً والتي تقع حالياً على الأمم تنتهي إلى تفرق الكلمة الوطنية والشعبية ، وإنَّ القوى الثلاث المتقدمة هي بمثابة المقدمات لها والعوامل المعدة لها ، والتفرق بمثابة النتيجة والجزء الأخير من العلة ، لهذا كانت جهات الاستعباد في لسان الآيات والأخبار مستندة إلى هذهِ النتيجة قال عزَّ من قائل : إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ 66))[67]

هنا يبين الشيخ أثر التسلط ونتائجه السلبية على كل الناس الذين يكونون منقادين إلى الظلمة بفعل عوامل وظروف لها أسبابها المتنوعة منها السياسية والأمنية والاقتصادية وغيرها ، لذلك يسعى هؤلاء المتسلطين إلى جعل الشعوب عبارة عن جماعات متفرقة متعارضة حتى لا يستقر الوضع لديهم ويكون الحقد والتصيد فيما بينهم وتحين الفرص للانقضاض على مخالفيهم بما يحملوه من ضغائن هو الهدف الأساس الذي يسعون اليه ، وهنا يكون المجتمع ضعيفا منقاداً اليهم لا يمكن أن يرد لهم أيّ قرار أو يخالفهم ، لما يعيشوه من ضعف نتيجة الصراع القائم بينهم وهذا ما يفعلوه الطغاة ضمن قاعدة فرق تسد ، ولأهمية هذا الموضوع دفع الشيخ أن يأتي بآية قرآنية تمثل سلطة قولية في أعلى مستوياتها وهذا ما يدفع المقابل إلى أن يكون متقبلاً لكل ما قد طرحه من أفكار وموضوعات ، فالكتب المقدسة في جميع الديانات لها مكانة كبيرة والتقديس أعطاها سلطة لا يمكن الخروج عنها، ويكون التمسك بها ضرورة دينية لارتباطها بالعقيدة، ولا يمكن أن يتخلى عنها ولو جاءوا له بالبراهين والأدلة المتنوعة ؛ لأنَّ هذه الآيات تمثل القراءة التي لا يمكن تجاوزها أو التخلي عنها[٦٨] , فهي تمثل محور القداسة لدى من يؤمن بهذا الدين ممّا يبعدها عن التشكيك ويبقيها مصدر يقين لا يشوبه شائبة والأخذ منه على نحو التسليم.

٧–٢ سلطة السنة النبوية : وهذه من المسلمات الإسلامية التي يأخذ بها جميع المسلمين ؛لأنَّ تراثهم قد بني على ثنائية القرآن والسنة، إلّا إنَّ قسم من المسلمين كانت لهم خصوصية ؛لأنَّهم ضمنوا أحاديث أئمتهم إلى جانب السنة ، فللسنة سلطتها الحجاجية ؛لأنَّ الخطاب العربي بشكلٍ عام مرجعيته متمثلة بالقرآن والسنة والشعر العربي ، وهذا ما يجعلها تفرض على العمل الإبداعي الالتزام بتضمين الأحاديث ممَّا تعطي الخطاب وصف متين في السياق التنظيري المرتبط به[٦٩]. ومن أمثلة توظيف السنة : ((المساواة في القصاص والعقوبات ... قوله (صلى الله عليه وآله) أمام الأشهاد من أجل إحكام هذا الأساس الشريف حيث فرض المحال قائلاً : (لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)))[٧٠] , فالمُحاج يريد ترسيخ ما ذهب إليه في مؤلفه بأنَّ ما يدعو إليه من قيم التحرر والعدالة والمساواة لها بعده الديني في تراث الإسلام العظيم بما يمتلكه من موروث روائي عظيم ، فهنا ورد حديث النبي (صلى الله عليه وآله) أثره في ترسيخ المساواة التي عمل الطغاة والظالمين على مفارقتها وهجرانها ,بل بث ثقافة التمييز بين أبناء الأمة الواحدة ، وحتى يعيد المتلقي إلى تلك القيمة العليا ، يركزها في ذهنيته بحديثٍ نبوي يدلل على عمق الثقافة الدينية في مثل هكذا موضوعات وعلى الجميع العمل لحصولها ؛ إذ تعتمد هذه الاستراتيجية على العلاقة المبتنية

ما بين طرفي الخطاب، و تتنامى من خلال توظيف عناصر السياق التي تجمع الطرفين على ما هو مسلَّم ومقبول بينهما بما ينعكس بشكل ايجابي على شكل الخطاب ونتائجهُ[٧١].وبهذا أصبح الخطاب أكثر قناعة ورجاحة لدى المتلقي ممَّا يشعره بضرورة الارتباط بهذا العمل الذي يستند إلى سلطة تشريعية عليا منبثقة من أصول دينه فهي متسالم عليها لأنَّها تمثل المحور الآيديولوجي الذي ينتمي إليه ويطبق تكاليفه .

٨-حجة الشخص وأعماله : وهي من حجج الاتجاه التواجدي التي تقوم على العلاقة ما بين الشخص وعملهِ ؛لأنَّ العمل هو أحد مظاهر أو تجليات الشخص في الواقع الخارجي، وهذه العلاقة عامل مؤثر في الخطاب ؛لأنَّها تؤدي إلى بيان ما آلت إليه نتاجات الأفراد في الخارج ،ومدى ارتباط ما قاموا به من أعمال بمن يشاهدهم أو يتلقى فعلهم. وبما أنَّ الإنسان هو مصدر لأعمال وأفعال متعددة ومتعينة ممَّا يجعله مصدرًا للتقويم من قبل المتتبعين لأعماله سواء أ كانوا أفراداً عاديين أم نقاداً علميين، فهذه الحجة بنيت على العلاقة القائمة ما بين الإنسان كجوهر وأفعاله التي تعد تجليات لهذا الجوهر[٧٢]. ومن أمثلة ذلك وصف فعل الطغاة ((وهو أن يتعامل السلطان مع مملكتهِ كما يتعامل المالكون مع أموالهم الشخصية ، فيعتبر البلاد وما فيها ملكاً شخصياً لهُ ، ويجعل الشعب عبيداً له ، فهم كالأغنام والعبيد والإماء لم يخلقوا إلّا له ، فيقرّب من كان وفيّاً بهذا الغرض متفانياً بتحقيق رغبات السلطان وينفي عن البلاد –التي ظنها ملكاً شخصياً له– من وجده مخالفاً له ، وقد يعدمهُ أو يقدمهُ لقمة سائغة لكلابهِ وما حوله من الذئاب الضارية ، ثم يأمرهم بنهب أمواله وسلب عياله))[٧٣] يتمثل الشيخ هنا أفعال الحاكم الجائر بوصفه متصرف بأمور الناس وفق رأيه الغير مستند إلى الدين والخلق الحميد ,بل بما يجده موافق لهواه ، فهو يعمل على معاملة الناس بما يعتبرهم عبيداً يخضعون لسلطتهِ وطغيانه ، وهنا تتضح الفرعونية التي نبذها القرآن الكريم واعتبرها صفة ذميمة غير متقبلة ، فالشيخ في بيانهِ هذا حاول ضمن الاستراتيجية الحجاجية في خطابه يبين للقارئ أنَّ توجهه نحو القيم والأهداف التي ينشدها من خلال ما يضمنه من سياق قولي ,وهذا ما يعكس جوهر الفاعل ومؤثرية فعله ، فالنظر إلى السياق ذي النزعة السياسية والذي مثل فعلاً ناتجاً من صميم الوعي الذي يتمتع بهِ المتكلم ويعبر عمَّا يريده من أهداف وغايات إقناعية فضلاً عن أنَّه قد يتبنى منهجاً نقدياً أيضاً ، وكل ذلك يكون مختبئاً وراء القصدية المباشرة التي يتمتع بها الخطاب ؛لأنَّها تكون كاشفة عن شخصية الكاتب في الواقع الخارجي فشخصيته هي من تمنح الخطاب بعداً تأثيرياً كبيراً [٧٤] . فهذه الحجة أعطت متانة كبيرة للنص منحته فاعلية خطابية ذات بعد حجاجي يريد الباث أن يقنع المستقبل بمؤثرية الطاغي المستبد كشخص يتمظهر بهذه الأفعال وبذلك تكون عاقبة الأمة وخيمة لو انقادت لمثل هؤلاء، ليرسخ خطاب التحرر والنظر إلى حكم مستقل ينعم بالقانون الذي يستند إلى الشريعة.

الخاتمة :

اتضح إنَّ خطاب الشيخ النائيني الذي عالج فيه مشكلة كبرى عاش في ظلها المسلمون أعوام طويلة حتى تربو على مسايرتها وعدم توجيه أيّ نقد لها ، ممّا جعلهم يعيشون في ظل حكومات تسلطية تعمدت على تعبيد الشعوب ودفعهم عن كل ما فيه كرامتهم وعزتهم ، بل راحوا يحاربون كل دعوة إلى اصلاح الوضع ، هنا كان تنبيه الأمة عامل مهم لتوعية الناشئة من خطر الطواغيت ، إذ طرح معالجة جيدة على مستوى العمل السياسي بجعل هيئة تراقب عمل الحاكم ،وتشرع قوانين اسماها (بالمشروطة)لتكون ضابطة يرجع اليها عند النزاع والاختلاف ، وبما أنَّ هذا الطرح يعد جديدا في زمان الشيخ جابه بسببه عدة انتقادات اعتبروا ذلك تحدياً لقانون الله في تنصيب الإمام ، وهنا الشيخ رد بجواز التصدي للحكم في زمن الغيبة وهذا أمر عقلائي غير مرفوض ، ومن ثمَّ تبين حقيقة ما دعا له وبالأخص بعد استفحال عمل الظلمة لأجل تسليط حكمهم ، ونظراً لما استفادت منه الأمم الغربية في استثمارها لتعاليم الإسلام وأحاديث النبي وآله في تنظيم شؤون الأمة، كل ذلك حمل البحث حمولات حجاجية كبيرة لأجل توضيح استراتيجية الباث من خلال توظيف كمية كبيرة من الحجج التي تدفع المستقبل إلى تقبل ما يُطرح أمامه ، وبالأخص أنَّ المتقصد هو تهديم فكرة عاش عليها الناس ردحاً من الزمن تستلزم تقنيات متنوعة في الملفوظات القولية ؛ لتخرج الكلام مقبولا ومحققا للغاية المتوخاة للوصول بالناس إلى ميدان الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ، ونبذ التسلط المقيت .

الهوامش :

[١] -ينظر : قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف ، د.محمد حسين الصغير ، مؤسسة البلاغ ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ٢٠٠٩ م ، ٥١ .

[٢]– ينظر : نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، د. الحسين بنو هاشم ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٤ م ، ٤١ .

[٣]– ينظر : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، د . عبد الله صولة ، دار الجنوب للنشر والتوزيع ، تونس ، ط ١ ، ٢٠١١ م ، ٢٤ .

[٤] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، الشيخ محمد حسين النائيني ، ت. عبد الكريم آل نجف ، تعريب عبد المحسن آل نجف ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٢ م ، ٩٣ .

[٥]– ينظر : نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، ٤٣ .

[٦] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ٩٣ .

[٧] –ينظر : الخطاب والحجاج أنواعه وخصائصه ، د.هاجر مدقن ، منشورات ضفاف ، الجزائر ، ط ١ ، ٢٠١٣ م ، ٩٥ .

[٨]– ينظر : الحجاج أطره ومنطلقاته ، ٣٠٩ .

[٩] –سورة طه / ٤٧ .

[١٠]–تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٢٠ – ١٢١ .

[١١] –ينظر : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ٢٦ .

[١٢] –ينظر : حجاجية الصورة في الشعر العربي القديم ، د. محمد حسن أبو المجد ، دار النابغة ، طنطا ، مصر ، ط ١ ، ٢٠٢٠ م ، ٨٥ .

[١٣] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٥٧ – ١٥٨ .

[١٤] –ينظر : نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، ٤٦ .

[١٥] –ينظر : النص والخطاب ، شتيفان هابشايد ، ت .د. موفق محمد جواد ، دار المأمون ، بغداد ، ط ١ ، ٢٠١٣ م ، ٢٤ .

[١٦] –ينظر : الحجاج أطره و منطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه ، عبد الله صولة ، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، أعده فريق البحث بإشراف حمادي صمود ، طبعة جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية ، تونس ، كلية الآداب ، منوبة ، (د.ت)، ٣١١ .

[١٧] –ينظر : العامل الحجاجي والموضع ، عز الدين الناجح ، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، إشراف د. حافظ اسماعيل علوي ، عالم الكتب الحديث ، أربد ، الأردن ، ط ١ ، ٢٠١٠ م ، ٢٨٩ .

[١٨] –ينظر : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ٢٧ .

[١٩]– ينظر : العامل الحجاجي والموضع ، ٢٩٠ .

[٢٠] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٨٨ .

[٢١] ينظر : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ٢٨ .

[٢٢] ينظر : نظرية الحجاج عند بيرلمان ، ٤٨ .

[٢٣] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ،١٠٧.

[٢٤] –ينظر : الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات ، د . علي الشبعان ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٠ م .

[٢٥] – ينظر : الحجاج في الشعر العربي ،د.سامية الدريدي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ٢٠١١ م ، ١٨١ .

[٢٦] – ينظر : محاضرات في البلاغة الجديدة ، د. محمد مشبال ، دار الرافدين ، بيروت، ط ١ ، ٢٠٢١ م ، ٣٩ .

[٢٧] – ينظر : نظرية الحجاج عند بيرلمان ، ٥٩ .و في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ٤٦ .

[٢٨] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ٩٩.

[٢٩] –عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لأليات التواصل والحجاج ، د . عبد السلام عشير ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ٢٠٠٦ م ، ١٨٤

[٣٠] – ينظر : محاضرات في البلاغة الجديدة ، د. محمد مشبال، دار الرافدين ، بيروت، ط ١، ٢٠٢١ م، ٣٩ .

[٣١] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٦٠ .

[٣٢] – ينظر : محاضرات في البلاغة الجديدة ، ٤٠ .

[٣٣] – ينظر: البلاغة والاتصال ، د . جميل عبد الحميد ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، ٢٠٠٠ م، ١١٧ .

[٣٤] – ينظر : الحجاج في الشعر العربي ، ٢٠١ .

[٣٥] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٥٢ .

[٣٦] – ينظر:حجاجية الصورة في الشعر العربي ١٥٨. و اللسان والميزان والتكوثر العقلي ، د . طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٩٨ م ، ٢٦٨ .

[٣٧] –ينظر : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ٤٦ .

[٣٨] – ينظر : نظرية الحجاج عند بيرلمان ، ٦٦ – ٦٧ .

[٣٩] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ،١٥٩ .

[٤٠] –المصدر نفسه،١٨٥.

[٤١] – ينظر : الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل ، ١٤٣ .

[٤٢] – ينظر : الحجاج أطرهُ ومنطلقاتهِ ، ٣٣١ .

[٤٣] – ينظر : تهذيب البلاغة ، الشيخ جعفر السبحاني ، دار جواد الأئمة ،بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠١٣ م ٢٥٩ .

[٤٤] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٣٥ .

[٤٥] –المصدر نفسه ،١١٢.

[٤٦] – ينظر : حجاجية الشروح البلاغية ،د.فضيلة قوتال ،دار كنوز المعرفة ، عمان ، الأردن ،ط١ ، ٢٠١٧ م ، ١٨٨ .

[٤٧] – ينظر : نظرية الحجاج عند بيرلمان ، ٧١ .

[٤٨] – ينظر : محاضرات في البلاغة الجديدة ، ٥٨ .

[٤٩] – مدخل إلى الخطابة ، أوليفي روبول ، ترجمة رضوان العصبة ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ٢٠١٧ م ، ٢٠٤ .

[٥٠] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ٩٥ .

[٥١] –وردت هذه الحجة بشكل كبير في كتاب الشيخ النائيني إلّا إنَّ الاختصار دفعني إلى أن أكتفي بهذا الشاهد انظر صفحة ٩٨ – ٩٩ – ١٠٠– ١٠١ وغيرها .

[٥٢] – ينظر : الحجاج أطره ومنطلقاته ، ٣٣٣ .

[٥٣] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٥١ .

[٥٤] – ينظر : نظرية الحجاج عند بيرلمان ، ٧٥ .

[٥٥] تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ،١٦١ .

[٥٦] – ينظر : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ٥٠ . والحجاج في الشعر العربي ، ٢٢٤ .

[٥٧]–تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٩٢ .

[٥٨] – ينظر : الاستعارات التي نحيا بها ، جورج لا يكون ومارك جونسن ، ترجمة عبد المجيد جحفة ، دار توبقال ، ردمك ، المغرب ، ط ٢ ، ٢٠٠٩ م ، ٢١ .

[٥٩] –ينظر : محاضرات في البلاغة الجديدة ، ٦٠ .

[٦٠] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١١٩ .

[٦١] –في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ٣٢ .

[٦٢] –آليات الحجاج وأدواته ، ٨٨ .

[٦٣] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٨٧ .

[٦٤] – ينظر : استراتيجيات الخطاب ، ١١٤ .

[٦٥] – ينظر : في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطاب ، محمد مشبال ، دار كنوز ، عمان الأردن ، ط ١ ، ٢٠١٧ م ١٣٣ .

[66] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ٢١١ .

[67]–سورة القصص /٤ .

[٦٨] – ينظر : الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل ، ١٦٣ .

[٦٩] – ينظر : حجاجية الشروح البلاغية ، ٢٨٢ .

[٧٠] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، ١٢٣ .

[٧١] – ينظر : استراتيجيات الخطاب ، ٢٣٦ .

[٧٢] – ينظر : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ٥٠ .

[٧٣] –تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ،١٠١.

[٧٤] – ينظر : حجاجية الشروح البلاغية ، ٢٧٥ .

المصادر :

١– استراتيجيات الخطاب ،د. عبد الهادي الشهري ، دار الكتاب الجديد ، بنغازي ، ليبيا ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م .

٢– البلاغة والاتصال ، د . جميل عبد الحميد ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، ٢٠٠٠ م .

٣– تهذيب البلاغة ، الشيخ جعفر السبحاني ، دار جواد الأئمة ،بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠١٣ م .

٤– تنبيه الأمة وتنزيه الملَّة ، الشيخ محمد حسين النائيني ، ت. عبد الكريم آل نجف ، تعريب عبد المحسن آل نجف ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٢ م .

٥– الحجاج في الشعر العربي ،د.سامية الدريدي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ٢٠١١ م .

٦– الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات ، د . علي الشبعان ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٠ م .

٧– حجاجية الصورة في الشعر العربي القديم ، د. محمد حسن أبو المجد ، دار النابغة ، طنطا ، مصر ، ط ١ ، ٢٠٢٠ م .

٨– الحجاج أطره و منطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه ، عبد الله صولة ، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، أعده فريق البحث بإشراف حمادي صمود ، طبعة جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية ، تونس ، كلية الآداب ، منوبة ، (د.ت) .

٩– حجاجية الشروح البلاغية ،د.فضيلة قوتال ،دار كنوز المعرفة ، عمان ، الأردن ،ط١ ، ٢٠١٧ .

١٠– الخطاب والحجاج أنواعه وخصائصه ، د.هاجر مدقن ، منشورات ضفاف ، الجزائر ، ط ١ ، ٢٠١٣ م.

١١– عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، د . عبد السلام عشير ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ٢٠٠٦ م.

١٢– العامل الحجاجي والموضع ، عز الدين الناجح ، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، إشراف د. حافظ اسماعيل علوي ، عالم الكتب الحديث ، أربد ، الأردن ، ط ١ ، ٢٠١٠ م .

١٣– في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، د . عبد الله صولة ، دار الجنوب للنشر والتوزيع ، تونس ، ط ١ ، ٢٠١١ م .

١٤– في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطاب ، محمد مشبال ، دار كنوز ، عمان الأردن ، ط ١ ، ٢٠١٧ م .

١٥– قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف ، د.محمد حسين الصغير ، مؤسسة البلاغ ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ٢٠٠٩ م.

١٦– اللسان والميزان والتكوثر العقلي ، د . طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٩٨ م.

١٧– الاستعارات التي نحيا بها ، جورج لا يكون ومارك جونسن ، ترجمة عبد المجيد جحفة ، دار توبقال ، ردمك ، المغرب ، ط ٢ ، ٢٠٠٩ م .

١٨– محاضرات في البلاغة الجديدة ، د. محمد مشبال ، دار الرافدين ، بيروت، ط ١ ، ٢٠٢١ م .

١٩– مدخل إلى الخطابة ، أوليفي روبول ، ترجمة رضوان العصبة ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ٢٠١٧ م .

٢٠– النص والخطاب ، شتيفان هابشايد ، ت .د. موفق محمد جواد ، دار المأمون ، بغداد ، ط ١ ، ٢٠١٣ م .

٢١– نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، د. الحسين بنو هاشم ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٤ م .